أثر القراءات المدرجة عند المفسرين في بيان المعاني
من القرن الثالث إلى القرن الرابع عشر.
(دراسة مقارنة)

الباحث / جمال فاضل أحمد محمود

الملخص

مما لا شك فيه أن القراءات القرآنية لها أثرها البيّن في الفهم والتفسير اللغوي بمستوياته المختلفة للآية القرآنية؛ فالقراءات القرآنية إحدى القرائن التي تعين على التوصل لفهم المعنى؛ لذا لم يغفل علماء التفسير ذلك, وحاول كل واحد منهم تناول القراءات في تفسيره للآية القرآنية قدر طاقته؛ فأدى ذلك إلى تنوع الفهم, وإثراء المعاني, ودفع ما يتوهم من الإشكال عن معنى الآية؛ وقد أشار القرطبي وأبو حيان بأن القراءة الشاذة تحمل على أنها قراءة تفسيرية.. ولكن بزيادة من التحقيق والتدقيق؛ وجد أن القراءات الشاذة منها ما لا أثر له في التفسير. ومنها ما له أثر في التفسير، فالأول: ما لا أثر له في التفسير، وذلك نحو الاختلاف في وجوه الأداء، كالتسهيل والتوسط والتحقيق، والإمالة والإضجاع والإشباع، وغيرها؛ فذلك وجه للقراءة والأداء ليس له أثر في التفسير, والثاني: ما له أثر في التفسير، نحو اختلاف حروف الكلمات، واختلاف الحركات الذي يختلف معه المعنى, وأيضا منه ما زيد بكلمة أو كلمتين ويسمى بالقراءة المدرجة؛ فلذلك يستفاد من القراءة الشاذة في بيان معاني الآيات, وتوسيع معنى الآية, ومنها ما يزيل الإشكال عن معنى الآية, أما ما أدرج بزيادة بعض الكلمات؛ وسُمي بالقراءة المدرجة أو التفسيرية؛ فهذا فرع عن القراءة الشاذة, وحملها بعض العلماء أنها كانت زيادات من بعض الصحابة من قبيل التفسير؛ فلذا أفردت مبحث مستقل للقراءة المدرجة عن القراءة الشاذة.

واشتمل البحث على:

-مقدمة، فيها مشكلة البحث, وأهميته ، ومنهج البحث.

-ثم نماذج من القراءات المدرجة التي استعان بها المفسرون في كتب التفسير.

- والخاتمة, فيها أهم النتائج, والمصادر.

Summary

There is no doubt that the Quranic readings have a clear impact on understanding and linguistic interpretation at its different levels of the Quranic verse. Quranic readings are one of the clues that help to reach an understanding of the meaning. Therefore, the scholars of interpretation did not ignore this, and each one of them tried to deal with the readings in his interpretation of the Qur'anic verse as much as he could. This led to a diversity of understanding, enriching the meanings, and repelling the imagined forms of confusion about the meaning of the verse. Al-Qurtubi and Abu Hayyan indicated that the anomalous reading is an explanatory reading.. but with an increase in investigation and scrutiny. It was found that the abnormal readings have no effect on the interpretation. Among them are those that have an effect on the interpretation, the first: that which has no effect on the interpretation, and that is towards the difference in the aspects of performance, such as facilitation, mediation, verification, tilting, lying down, gratification, and others; This aspect of reading and performance has no effect on the interpretation, and the second: what has an impact on the interpretation, towards the difference in the letters of the words, and the difference of the movements with which the meaning differs, and also from it what is added by a word or two and is called the inscribed reading; Therefore, it is benefited from the abnormal reading in explaining the meanings of the verses,

and expanding the meaning of the verse, and some of them remove the confusion about the meaning of the verse. As for what was included by adding some words; It is called the included or explanatory reading; This is a branch of abnormal reading, and some scholars held that it was additions from some companions such as interpretation; So I singled out a separate study for the reading listed for abnormal reading.

The search included:

Introduction, in which the research problem, its importance, and research methodology.

- Then samples of the listed readings used by the commentators in the books of interpretation. The conclusion contains the most important results and sources.

المقدمة

القراءة المدرجة هي فرع عن القراءة الشاذة, وأول من استعمل مصطلح القراءة المدرجة في أنواع القراءات؛ هو جلال الدين السيوطي ـرحمه اللهـ حين أشار إلى هذه القراءة في كتابة "الإتقان في علوم القران" عند كلامه حول القراءة الشاذة حيث قال: "وظهر لي سادس يشبه من أنواع الحديث المدرَج، وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير، كقراءة سعد ابن أبي وقّاص: {ولَهُ أخٌ أو أُختٌ مِن أُمِّ}[1] وغيرها" [2]. وأوضح أنها ليست قرآنا يتلى تعبدا، وإنما يستفاد بها في التفسير اتفاقا , وقد دونها الصحابة في مصاحفهم الخاصة بهم, وكانت مخالفة لسواد المصاحف التي أجمعت عليها الأمة خلال الجمع العثماني، وكان أصحابها واعين لتلك القراءات الشاذة والتفسيرات المدرجة؛ لأن تلك المصاحف كانت بمنْزلة تقييدات خاصة تتضمن شروحا وتفسيرات.

وقد أوضح ذلك ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) فقال: (وربما يدخلون التفسير في القراءات إيضاحاً وبياناً؛ لأنهم محققون لما تلقوه عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قرآنا، فهم آمنون من الالتباس, وربما كان بعضهم يكتبه معه، لكن ابن مسعود – رضي الله عنه – كان يكره ذلك ويمنع منه فروى مسروق عنه أنه كان يكره التفسير في القرآن وروى غيره عنه: " جردوا القرآن ولا تلبسوا به ما ليس منه)[3].

واحتج بعض المفسرين كابن جرير الطبري, والقرطبي, أبي حيان, وابن عطية, بالقراءة المدرجة في الترجيح بين الآراء التفسيرية, وأيضا لإضافة معاني جميلة للآية؛ حيث يعد هذا النوع من القراءة طريق للمفسر لفهم الآية بشكل دقيق؛ وتوضيح ما يكون غامضا فيها. وإزالة ما قد يكون فيها من إشكال.

مشكلة البحث: تتمثل مشكلة البحث فيما يلي:–

– ما هي القراءة المدرجة ؟

– ما الذي أفاده المفسرون في الاستعانة بالقراءات المدرجة ؟

– ما مدى قبول المفسـرين للقراءات المدرجة ، والطرق التي يعتمدون عليها في تقوية وجوه القراءات ؟

– ما الآثار التفسيرية المترتبة على مراعاة المفسرين للقراءات المدرجة, على مر القرون، وما أثرها الفعال في إيضاح المعاني التفسيرية والاستدلال الفقهي؟

أهمية البحث:

بيان معنى القراءة المدرجة, وبيان علاقتها بالقراءة الشاذة والتفسيرية ومعرفة مدى استعانة المفسرين بها في تفاسيرهم من القرن الثالث إلى القرن الرابع عشر، ومعرفة الفرق بين أساليبهم في سردها، وفائدة ذكرها في كتب التفسير المطولة والمتوسعة والمختصرة والموجزة.

منهج البحث:- المنهج العلمي المتبع في الدراسة هو المنهج المقارن، والذي يقوم على المقارنة بين كتب التفسير من القرن الثالث إلى القرن الرابع عشر؛ متبعا الخطوات التالية:-

١- ذكر نماذج من القراءات المدرجة التي وردت في كتب التفسير.

٢- بيان مدى استعانة علماء التفسير بالقراءات المدرجة في التفسير من القرن الثالث إلى القرن الرابع عشر، والوقوف على الفرق بينهم.

٣- ذكر جهد المفسِّر في توجيه معاني الألفاظ المختلفة في كل قراءة واردة في الآية.

٤- ذكر أثر القراءة المدرجة التي استعان بها المفسر في تفسيره، والفرق بينه وبين غيره من المفسرين.

نماذج من القراءات المدرجة التي استعان بها المفسرون في كتب التفسير

لقد عرف السيوطي رحمة الله القراءة المدرجة : (بأنها ما زيد في القراءات على وجه التفسير). وهي فرع عن القراءة الشاذة, وهذه الزيادة في القراءة المدرجة قد تكون في الكلمة القرآنية كما ورد في قراءة ابن مسعود في سورة المائدة (والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهما).

وقد تكون الزيادة بكلمة نحو قوله سبحانه{وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا }[٤] , فقرأ ابن عباس : (يأخذ كل سفينة صالحة غصبا) بزيادة كلمة صالحة.

وقد تكون بزيادة كلمتين كقراءة سعد بن أبي وقاص: "وله أخ أو أخت من أم " أخرجها سعيد بن منصور, بزيادة(من أم).

وقد تكون بزيادة جملة؛ كقراءة ابن الزبير في قوله تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }[٥], قرأ "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم", بزيادة جملة (ويستعينون بالله على ما أصابهم).

يقول أبُو عُبَيْد القاسم ت ٢٢٤ هـ عن القراءة المدرجة: "فإنما أراد أهل العلم منها أن يستشهدوا بها على تأويل ما بين اللوحين، وتكون دلائل على معرفة معانيه وعلم وجوهه"[٦].

النموذج الأول: قوله تعالى:{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ}(٧).

جاء في قراءة السيدة عائشة, وابن مسعود, وابن عباس, وجماعة: ((والصلاة الوسطى صلاة العصر))(٨).

وبناء على ورود القراءة الشاذة في الآية اختلف العلماء في المعنى المراد بالصلاة الوسطى، فذهب الجمهور إلى أنها صلاة العصر؛ مستندين إلى القراءة الشاذة, والبعض الآخر منهم ذهب كذلك إلا أنه لم يستند إلى القراءة بل استند إلى الأحاديث الصحيحة التي جاءت ببيان ذلك كالأحناف والشافعية كقوله عليه الصلاة والسلام "شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا"(٩).

وممن استدل بالقراءة المدرجة من المفسرين؛ أبو جرير الطبري, فبعد ما ذكر جملة من الآثار(١٠), ومنها ما روي عن البراء بن عازب قال: "نزلت هذه الآية: "حافظوا على الصلوات وصلاة العصر"، قال: فقرأناها على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ما شاء الله أن نقرأها. ثم إن الله نسخها فأنزل: "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين"، قال: فقال رجل كان مع شقيق: فهي صلاة العصر! قال: قد حدثتك كيف نزلت، وكيف نسخها الله، والله أعلم"(١١).

ثم قال: "وإنما قيل لها الوسطى: لتوسطها الصلوات المكتوبات الخمس، وذلك أن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين، وهي بين ذلك وسطاهن، والوسطى: الفعلي من قول القائل: وسطت القوم أسطهم سطة ووسوطا: إذا دخلت وسطهم، ويقال للذكر فيه: هو أوسطنا، وللأنثى هي وسطانا"(١٢).

وأيضا استدل بها السمرقندي في بحر العلوم :" والصلاة الوسطى صلاة العصر, ويقال: هي قراءة عبد الله بن مسعود... ومن طريق المعقول يدل أيضاً على أن صلاة الوسطى هي صلاة العصر، لأن قبلها صلاتي النهار وبعدها صلاتي الليل(١٣).

ووافق ذلك جملة من المفسرين منهم الثعلبي في تفسيره(١٤) , والسمعاني(١٥), والزمخشري(١٦), وابن عطية(١٧) , وأيضا ابن كثير في تفسيره حيث قال:" كل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها، وإنما المدار ومعترك النزاع في الصبح والعصر. وقد ثبتت السنة بأنها العصر، فتعين المصير إليها(١٨).

وذكر البغوي جملة الآراء ولم يرجح حيث قال: "قال بعضهم هي إحدى الصلوات الخمس لا

بعينها أبهمها الله تعالى تحريضا للعباد"[١٩].

ووافقه القرطبي, وأبو حيان [٢٠], والسيوطي[٢١] , والشوكاني[٢٢].

قال الشوكاني:. "وبعض القائلين عول على أمر لا يعول عليه فقال إنها صلاة كذا لأنها وسطى بالنسبة إلى ان قبلها كذا من الصلوات وبعدها كذا من الصلوات وهذا الرأي المحض والتخمين البحت لا ينبغي ان تسند إليه الأحكام الشرعية على فرض عدم وجود ما يعارضه عن النبي – صلى الله عليه وسلم– فكيف مع وجود ما هو في أعلا درجات الصحة والقوة والثبوت عن رسول الله (–صلى الله عليه وسلم–) وبالله العجب من قوم لم يكتفوا بتقصيرهم في علم السنة وإعراضهم عن خير العلوم وأنفعها حتى كلفوا أنفسهم التكلم على أحكام الله والتجري على تفسير كتاب الله بغير علم ولا هدى فجاءوا بما يضحك منه تارة تارة ويبكي منه أخرى"[٢٣].

ومما سبق يتبين أن الرأي الراجح أنه قد روي (والصلاة الوسطى، صلاة العصر)، ثم نسخت فنزلت: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى فيلزم من هذا نسخ تعيينها، وأبهمت بعد أن عينت وهو الصحيح إن شاء الله لتعارض الأدلة وعدم الترجيح، فلم يبق إلا المحافظة على جميعها وأدائها

النموذج الثاني: قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنزلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ} [٢٤] .

ورد في هذه الآية الكريمة قراءة مدرجة عن أبي, وابن عباس أنه كان يقرأ (وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون في العلم: آمنا به), وعن عبد الله بن مسعود: (إنْ تَأويلُهُ إلّا عِنْدَ الله. والرّاسخون في العِلْم يقولون آمَنّا به) [٢٥].

اختلف المفسرون في تفسير الآية على قولين الأول: أن الراسخين لا يعلمون تأويل المتشابه,

والثاني: أن الراسخين يعلمون تأويل المتشابه.

قال أبو جعفر الطبري: " القول الأول في ذلك، وقال: إن الراسخين لا يعلمون تأويل ذلك، وإنما أخبر الله عنهم بإيمانهم وتصديقهم بأنه من عند الله، فإنه يرفع "الراسخين في العلم" بالابتداء في قول البصريون، ويجعل خبره: "يقولون آمنا به". وأما في قول بعض الكوفيين، فبالعائد من ذكرهم في "يقولون". وفي قول بعضهم: بجملة الخبر عنهم، وهي: "يقولون".

ومن قال القول الثاني، وزعم أنّ الراسخين يعلمون تأويله، عطف بـ"الراسخين" على اسم "الله"، فرفعهم بالعطف عليه.. والصواب عندنا في ذلك أنهم مرفوعون بجملة خبرهم بعدهم وهو: "يقولون"، لما قد بينا قبل من أنهم لا يعلمون تأويل المتشابه الذي ذكره الله عز وجل في هذه الآية، وهو فيما بلغني مع ذلك في قراءة أبيّ: (وَيَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) كما ذكرناه عن ابن عباس أنه كان يقرأه. وفي قراءة عبد الله: (إِنْ تَأْوِيلُهُ إِلا عِنْدَ اللَّهِ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ)" (٢٦).

قال الكرماني ت ٥٠٥ هـ: "ولأن في بعض المصاحف "إلا الله ويقول الراسخون في العلم"، وهذا قاطع, ولأن الحال يقتضي أن يكون من المعطوف والمعطوف عليه، وهو فاسد"(٢٧).

قال ابن عطية: "واختلف العلماء في قوله تعالى: وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ فرأت فرقة، أن رفع وَالرَّاسِخُونَ هو بالعطف على اسم الله عز وجل وأنهم داخلون في علم المتشابه في كتاب الله وأنهم مع علمهم به، يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ الآية. قال بهذا القول ابن عباس، وقال: أنا ممن يعلم تأويله، وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به، وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير وغيرهم، وقالت طائفة أخرى: وَالرَّاسِخُونَ رفع بالابتداء وهو مقطوع من الكلام الأول وخبره يَقُولُونَ، والمنفرد بعلم المتشابه هو الله وحده بحسب اللفظ في الآية وفعل الراسخين قولهم آمَنَّا بِهِ قالته عائشة وابن عباس أيضا، وقال عروة بن الزبير: (إن الراسخين لا يعلمون تأويله ولكنهم يقولون، آمَنَّا بِهِ).. فإعراب الرَّاسِخُونَ يحتمل الوجهين، ولذلك قال ابن عباس بهما، والمعنى فيهما يتقارب بهذا النظر "(٢٨).

وذهب إلى ترجيح القول الثاني: الزمخشري, وابن فورك , والقرطبي, وأبو حيان.

قال الزمخشري: "لا يهتدى إلى تأويله الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا اللَّه وعباده الذين رسخوا في العلم، أي ثبتوا فيه وتمكنوا وعضوا فيه بضرس قاطع. ومنهم من يقف على قوله إلا اللَّه، ويبتدئ والراسخون في العلم يقولون, ويفسرون المتشابه بما استأثر اللَّه بعلمه، وبمعرفة الحكمة فيه من آياته(٢٩).

قال القرطبي: "قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وهو الصحيح، فإن تسميتهم راسخين يقتضي أنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب. وفي أي شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع؛ لكن المتشابه يتنوع، فمنه ما لا يعلم البتة كأمر الروح والساعة مما استأثر الله بغيبه، وهذا لا يتعاطى علمه أحد لا ابن عباس ولا غيره. فمن قال من العلماء الحداق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه فإنما أراد هذا النوع"(٣٠)

قال أبو حيان: "ومن فسر المتشابه بأنه ما استأثر الله بعلمه فقط، فتفسيره غير صحيح، لأنه تخصيص لبعض المتشابه. انتهي[٣١].

وتوسط الشوكاني بين القولين ونقل عن بعض أهل العلم فقال: " ومن أهل العلم من توسط بين المقامين فقال: التأويل يطلق ويراد به في القرآن شيآن: أحدهما: التأويل بمعنى: حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله: هذا تأويل رؤياي ، وقوله: هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله» أي: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة، لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه إلا الله عز وجل، ويكون قوله: والراسخون في العلم مبتدأ، ويقولون آمنا به خبره. وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله: نبئنا بتأويله أي: بتفسيره، فالوقف على: والراسخون في العلم لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علما بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون: يقولون آمنا به حالا منهم"[٣٢]

ومما سبق يتبين أن بعض المفسرين ظن أن معنى الآية مشكل ودائر بين احتمالين لا مرجح لأحدهما على الآخر فهل المقصود أنه لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله وحده أما الراسخون في العلم فإنهم يؤمنون به ويسلّمون بأنه من عند الله؟ أم أن المقصود أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه قائلين آمنا به؟

ورجح بعض المفسرين القول الثاني: ومنهم الزمخشري, أبو حيان[٣٣]، وابن قتيبة، وأبو سليمان الدمشقي ونسب ابن أبي نجيح هذا القول لمجاهد وابن عباس قال ابن الأنباري: ولا تصح روايته . أي ابن أبي نجيح عن مجاهد[٣٤]. في حين أن جمهور المفسرين اختاروا القول الأوّل وهو أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه، ومن هؤلاء ابن مسعود، وابن عباس، وأبيّ بن كعب، وعروة، وقتادة وغيرهم [٣٥].

ومن أبرز ما يرجح به المفسّر قول الجمهور ويدفع به الإشكال عن معنى الآية قراءة تفسيرية لابن عباس أخرجها عبد الرزاق في تفسيره بإسناد صحيح وهي: «وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به» وأخرج هذه الرواية الحاكم في المستدرك وصححها على شرط الشيخين[٣٦] وقراءة تفسيريّة أخرى لعبد الله بن مسعود هي: «وإن حقيقة تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به»[٣٧]. وهاتان القراءتان وإن لم يثبت كونهما قرآنًا لعدم التواتر فأقل درجاتهما أن تكونا خبرًا بإسناد صحيح إلى صحابيين جليلين, ولقد ذكر بعض المفسرين

مرجحات أخرى في القراءة المتواترة بينها السيوطي[٣٨], والشنقيطي[٣٩].

النموذج الثالث: قوله تعالى:{وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٤٠].

قال الطبري: " عن سعيد بن جُبير، أنه كان يقرأ:(فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ لهن غَفُورٌ رَحِيمٌ) .. غفور رحيم لهن؛ يعني: «إذا أكرهن» [٤١].

قال أبو منصور الماتُرِيدي (ت ٣٣٣ هـ) : " وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: يرجع إلى الإماء يقول: فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم لهن، وكذلك روي في بعض الحروف أنه قرئ: (فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم).

والثاني: يرجع إلى السادات؛ فإن الله لهم غفور رحيم إذا تابوا، وأصلحوا" [٤٢].

وهنا يظهر إشكال في معنى هذه الآية عند من توهم فيها إشكالًا أن الخطاب في أول الآية لمن يملك الإماء وفي آخرها إخبار بمغفرة الله ورحمته من بعد إكراههن دون بيان لمن تكون هذه المغفرة والرحمة وهل تشمل المكْرِه وهو السيد، والمكْرَه وهي الأمة أم يخص ذلك المكره على الزنا وهي الأمة؟.

قال الثعلبي: " بعد ورود النهي فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ لهنّ غَفُورٌ رَحِيمٌ, والوزر على المكره، وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال: لهنّ والله لهن[٤٣].

ووافقه الزمخشري, وابن عطية, وأبو البقاء: أن الله غفور رحيم لهن أي للمكرهات، فعريت جملة جواب الشرط من ضمير يعود على اسم الشرط[٤٤].

واختار بعض المفسرين كون المغفرة لمن أكره أمته على الزنا لكنه أضاف شرطًا لا نص عليه في هذه الآية وهو التوبة ومن هؤلاء صاحب البحر المحيط حيث قال: «الصحيح أن التقدير: غفور رحيم لهم؛ ليكون جواب الشرط فيه ضمير لا يعود على (من) الذي هو اسم الشرط ويكون ذلك مشروطًا بالتوبة»[٤٥].

وذهب السيوطي إلى ما ذهب إليه أبو حيان في تفسيره؛ حيث رد على تضعيف الرازي لهذا الرأي فقال: " وقد ضَعَّفَ الإمامُ الرازي تقديرَ» بهم «ورَجّح تقديرَ» بهنَّ «فقال:» فيه وجهان، أحدُهما: غفورٌ لهنَّ؛ لأن الإكراهَ يُزيل الإثمَ والعقوبةَ عن المكْرَهِ فيما فَعَلَ. والثاني: فإنَّ اللهَ غفورٌ للمكرِهِ بشرطِ التوبةِ. وهذا ضعيفٌ لأنه على التفسيرِ الأولِ لا حاجةَ إلى هذا الإضمارِ. وفيه نظرٌ لِما عَرَفْتَ من أنَّه لا بُدَّ من ضميرٍ يعودُ على اسمِ الشرطِ عند الجمهورِ وقد تقدَّم تحقيقُه في البقرةِ. ولَمَّا قَدَّر الزمخشريُّ» لهنَّ «أورد سؤالاً فقال:» فإن قلتَ: لا حاجةَ إلى تعليقِ المغفرةِ بِهنَّ،

لأنَّ المكْرَهَةَ على الزنى بخلاف المكرِه [عليه في أنها] غيرُ آثمةٍ[٤٦]. قلت: لعل الإكراهَ غيرُ ما اعتبَرَتْه الشريعةُ من إكراهٍ بقَتْلٍ أو ممَّا يُخافُ منه التَّلَفُ أو فواتُ عضوٍ حتى تَسْلَمَ من الإثمِ. وربما قَصَّرَتْ عن الحدِّ الذي تُعْذَرُ فيه فتكونُ آثمةً " [٤٧].

ومما سبق يبقى توهم الإشكال واردًا في معن الآية؛ فهل يعد الله من أكره أمته على الزنا بالمغفرة والرحمة دون توبة من هذا الذنب الذي جاءت الآية لتنهي عنه؛ أم أن الله غفور لهن، ، أم أن الله غفور لهن ولهم.

والراجح في ذلك ما ذهب إليه الطبري, والثعلبي, الزمخشري, وابن عطية, والشنقيطي[٤٨]؛ أن الله غفور للمكرهات؛ لأن المكره لا يؤاخذ بما أكره عليه، بل يغفره الله له لعذره بالإكراه ; كما يوضحه قوله تعالى: {إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان }[٤٩]، ويؤيده قراءة ابن مسعود، وجابر بن عبد الله، وابن جبير، (فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم).

وأن تجويز تعلق المغفرة والرحمة بمن أكره أمته على الزنا بشرط التوبة إخلالُ بجزالة النظم وتهوين لأمر النهي في مقام التهويل. فهذه القراءة التي وردت عن ابن عباس وجابر وابن مسعود وسعيد بن جبير, جاءت لتدفع الإشكال المتوهم عن معنى هذه الآية, وإن كانت قراءة شاذة لمخالفتها رسم المصحف إلا أنها من القراءات المدرجة؛ أي التفسيريّة, فأقل أحوالها أنها تفسير للقرآن بقول الصحابي.

ومما سبق يتبين أن القراءة المدرجة في هذه الآية الكريمة أعانت المفسر على دفع الإشكال الناشئ في معنى هذه الآية, وأسهمت بشكل مباشر في صحة التفسير واستقامته مع سبب النزول, وملاءمة النظم القرآني.

الخاتمة

وأهم النتائج

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعظمته وفضله تتولى الخيرات, والفيوضات، فهذا ما منَّ الله به علينا وجاد، والصلاة والسلام على النبي المصطفى خير الأنام، وبعد.. فأختم هذه البحث ببيان أبرز النتائج على النحو التالي:

أولا: إنه من خلال ما تقدم من البحث تبين أن هناك اختلاف بين علماء التفسير في الاستعانة بالقراءة المدرجة في التفسير, والبعض احتج بها في ترجيح بعض الآراء.

ثانيا : ذهب كثير من علماء التفسير أن القراءة المدرجة قراءة تفسيرية, وأنها فرع عن القراءة الشاذة.

ثالثا: أن القراءة المدرجة أزالت بعض الإشكال عن معاني بعض الآيات, والبعض الآخر أضاف لها معاني أخرى.

رابعا: يجب على المفسر أن يستعين القراءات القرآنية؛ وإلا أصبح تفسيره أقل درجة من التفاسير الأخرى.

هوامش البحث:

(١)- النساء: ١٢

(٢) -انظر الإتقان ١/ ٢٦٦ وما قبلها., مناهل العرفان ١ / ٤٢٩ ، وما بعدها

(٣) -انظر: النشر في القراءات العشر (١/ ٣٢), والإتقان ١/١٣٤.

(٤)- سورة الكهف ٧٩

(٥) -سورة آل عمران : ١٠٤

(٦) -"فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص: ٣٢٦)

(٧)- سورة البقرة: ٢٣٨

(٨) -انظر: تفسير الطبري (٥/ ١٧٣), والهداية لمكي (١/ ٨٠٣)

(٩) -أخرجه البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧)، وأبو داود (٤٠٩)، والترمذي (٣٢٢٦)، والنسائي ١/ ٢٣٦ من طرق عن علي وهو في "مسند أحمد" (٥٩١) و (١٢٨٧).

(١٠) -انظر تفسير الطبري (٥/ ١٩٣) وما قبله.

(١١)- الحديث رواه مسلم في صحيحه ١: ٧٥، (٦٢٧)عن إسحاق بن راهويه، عن يحيى بن آدم، عن فضيل بن مرزوق، به. ثم قال: "ورواه الأشجعي، عن سفيان الثوري، عن الأسود بن قيس، عن شقيق بن عقبة، عن البراء بن عازب". وذكره السيوطي ١: ٣٠٣، وزاد نسبته لعبد بن حميد، وأبي داود في ناسخه. ولكنه لم ينسبه للحاكم. وذكره ابن كثير ١: ٥٨٢، عن صحيح مسلم. ثم قال: "فعلى هذا تكون هذه التلاوة، وهي تلاوة الجادة - ناسخة للفظ رواية عائشة وحفصة ولمعناها، إن كانت الواو دالة على المغايرة. وإلا فلفظها فقط" وهذا فقه دقيق وبديع.

(١٢)- تفسير الطبري (٥/ ٢٢٧)

(١٣) -تفسير السمرقندي = بحر العلوم (١/ ١٥٧)

(١٤)- الكشف والبيان (٢/ ١٩٦)

(١٥) -تفسير السمعاني (١/ ٢٤٢).

(١٦) -الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٢٨٧)

(١٧) -المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٣٢٣).

(١٨)- تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٦٥٤)

(١٩) -تفسير البغوي - إحياء التراث (١/ ٣٢٤)

(٢٠) -البحر المحيط في التفسير (٢/ ٥٤٥)

(٢١) -الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (٣/ ٩٤)

(٢٢) - تفسير فتح القدير تفسير (١/ ٢٥٧)

(٢٣) -تفسير فتح القدير تفسير (١/ ٢٥٧)

(٢٤)- سورة آل عمران: ٧

(٢٥) -انظر هذه القراءة، , جامع البيان (٦/ ٢٠٤), وبحر العلوم (١/ ١٩٥), وفي "معاني القرآن" للفراء: ١/ ١٩١، "الأضداد" لابن الأنباري: ٤٢٦، "القطع والائتناف" للنحاس: ٢١٢، "المستدرك" للحاكم: ٢/ ٢٨٩ كتاب: التفسير، سورة آل عمران. وقال: (صحيح) ووافقه الذهبي، "تفسير الثعلبي" ٣/ ٩ أ، "الدر المنثور" ٢/ ١٠- وزاد نسبة إخراج الأثر لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر. قال النحاس عن هذه القراءة: (وهي قراءة على التفسير): تفسير الصنعاني (١/ ١١٦).

(٢٦) - جامع البيان (٦/ ٢٠٤)

(٢٧) -غرائب التفسير وعجائب التأويل (١/ ٢٤٣)

(٢٨)- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٤٠٢,٤٠٣)

(٢٩) -الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٣٣٨)

(٣٠)- تفسير القرطبي (٤/ ١٨)

(٣١) -البحر المحيط (٣/ ٢٩)

(٣٢) -فتح القدير للشوكاني (١/ ٣٦٣)

(٣٣) - البحر المحيط (٣/ ٢٩)

(٣٤) - لابن الأنباري: ٤٢٦

(٣٥) - انظر: جامع البيان (٦/ ٢٠٤)

(٣٦) - المستدرك" للحاكم: ٢/ ٢٨٩

(٣٧) -جامع البيان (٦/ ٢٠٤), وبحر العلوم (١/ ١٩٥)

(٣٨) - الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٢/ ١٥٢)

(٣٩) - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٣٣٤)

(٤٠) - سورة النور:٣٣

(٤١) - جامع البيان ت شاكر (١٩/ ١٧٥)

(٤٢) - تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٧/ ٥٦٢)

(٤٣) - الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٧/ ٩٩)

(٤٤) - انظر: الكشاف (٣/ ٢٣٧), المحرر الوجيز (٤/ ١٨١).

(٤٥) - البحر المحيط في التفسير (٨/ ٤١)

(٤٦)- تفسير الرازي: مفاتيح الغيب. العلمية (٢٣/ ١٩٣)

(٤٧) - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٨/ ٤٠٢)

(٤٨) - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥/ ٥٣٢)

(٤٩) - سورة النحل :الآية [١٦ \ ١٠٦]

قائمة بالمصادر والمراجع

١. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن المؤلف : محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفي : ١٣٩٣هـ) الناشر : دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان عام النشر : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفي: ٦٨٥هـ) المحقق: محمد عبد الرحمن الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.

٣. إعراب القراءات الشواذ لأبي البقاء العكبري (المتوفي: ٦١٦ هـ)، دراسة وتحقيق الأستاذ الدكتور العلامة: محمد السيد عزوز، عالم الكتب للطباعة والكتب- بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٧ هـ

٤. البحر المحيط ـ المؤلف : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي دار النشر : دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م الطبعة : الأولى عدد الأجزاء / ٨

٥. تفسير القرآن المؤلف: أبو المظفر، السمعاني (المتوفي: ٤٨٩هـ) الناشر: دار الوطن، الرياض – السعودية الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م

٦. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفي : ١٣٩٣هـ) الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ عدد الأجزاء : ٣٠

٧. تفسير النسفي(مدارك التنزيل وحقائق التأويل) المؤلف : لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي دار النشر : دار النفائس ـ بيروت ٢٠٠٥ عدد الأجزاء / ٤

٨. التسهيل لعلوم التنزيل المؤلف: أبو القاسم، محمد ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفي: ٧٤١هـ) الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ

٩. تفسير الثعلبي =الكشف والبيان عن تفسير القرآن المؤلف: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفي: ٤٢٧هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان

الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م عدد الأجزاء: ١٠

١٠. تفسير الجلالين المؤلف: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفي: ٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفي: ٩١١هـ) الناشر: دار الحديث – القاهرة الطبعة: الأولى عدد الأجزاء: ١

١١. التفسير والمفسرون للذهبي(١/ ٢٠٠)- مكتبة وهبة، القاهرة النشر ٢٠٠٠

١٢. تفسير القرآن العظيم شهرة الكتاب: تفسير ابن كثير المؤلف: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي شهرته: ابن كثير المحقق: دار الفكر الطبعة الجديدة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م

١٣. التيسير في القراءات السبع المؤلف: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفي: ٤٤٤هـ)الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م

١٤. -جامع البيان في تأويل القرآن المؤلف: محمد بن جرير أبو جعفر الطبري (المتوفي: ٣١٠هـ)المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة ط: الأولى، ١٤٢٠ هـ - عدد الأجزاء: ٢٤

- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي (المتوفي: ٦٧١هـ) الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م عدد الأجزاء: ٢٠ جزءا (في ١٠ مجلدات).